ضمور الآيديولوجيا وتراجع المثقفين

أحمد الحبيشي

يشهد العالم العربي ميولاً داخلية وضغوطاً خارجية للتحول نحو الديمقراطية وإعادة تأهيل أوضاعه الداخلية باتجاهٍ التكيف مع متطلبات الاندماج في النظام الكوني الآخذ في التشكل على يد مخرجات ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات . . وبوسعنا القول ان تراكم عمليات التحول نحو الديمقراطية وبناء المجتمع المدني سيجعل العالم العربي مفتوحاً على متغيرات نوعية قد تؤسس لنمط جديد من الثقافة السياسية والتفكير النظري .

والحال ان الثقافة عموماً والثقافة السياسية خصوصا شهدتا حالةً من الجمود والتراجع تحت تأثير انكماش وتدهور أوضاع الطبقة الوسطى ، الأمر الذي أدّى الى ان يفتقد المثقفون ـ الذين كان معظمهم جزءًا من هذه الطبقة ـ شروطاً اجتماعية لازمة لتشكيل وعيهم وتكوين مواقفهم واستعداداتهم ، ثم وجدوا انفسهم في مواجهة ركود تاريخي ارتبط بتراجع مكانتهم في السلم الطبقي والتأثير السياسي والاجتماعي .. وترافق هذا التراجع مع تراجع موا لتأثير الآيديولوجيات القومية والاشتراكية والدينية التي كان المثقفون يشكلون حاملها الاجتماعي بعد ان فشلت هذه الآيديولوجيات في اختبارات الحياة .

من نافل القول ان ضموراً كبيراً أصاب الآيديولوجيا القومية والاشتراكية ، حيث تم تعويم جهازها المفاهيمي التقليدي القديم وحصره في مفاهيم عائمة وزئبقية مثل ((التضامن العربي ، العمل العربي المشترك ،العدالة الاجتماعية ، البعد الاجتماعي ، الخ)) ، مقابل فكرة الوحدة القومية العربية وفكرة الاشتراكية .. امّا الآيديولوجيا الدينية التي ارتبطت بالاسلام السياسي فقد شهدت صعوداً أوصلها الى تبني صيغة بديلة عن كل ما هو موجود في العالم المعاصر ، واتسمت هذه الصيغة بنزوعها الى العنف والغاء الآخر والترويج لفكرة الاستحلال الحضاري ، ثم وصلت الى مأزق حاد أفضى الى التراجع عن صيغة البديل الحضاري الشامل ، والتّخبط خلف صيغ كان الجهاز المفاهيمي القديم للآيديولوجيا الاسلامية يرفضها جملةً وتفصيلاً .

في مقال سابق كتبت في هذه الصحيفة عن روّاد فكر النهضة الذين كانوا يبحثون عن أسباب تخلف المسلمين وسر تقدم اوروبا وغير المسلمين ، حيث طرحوا اسئلة جديدة بحثا عن أجوبة تُمكّن المسلمين من مغادرة نفق التخلف والانقطاع الحضاري .. ثم جاء ((الإخوان المسلمون)) بوجهة تفكير مختلفة ، فعوضاً عن السؤال : لماذا تخلف المسلمون وتقدم الآخرون ؟ طرح المفكر الإخواني ابو الحسن الندوي في منتصف الخمسينات سؤالاً هروبياً هو : ماذا خسر العالم بتوقف المسلمين عن المساهمة في صنع حضارتهم ؟ .. وقد وصف الندوي حضارة الغرب بالهشاشة والضعف والانحراف وتنبأ بسقوطها في نهاية القرن العشرين بسبب عدم مشاركة المسلمين في هذه الحضارة .. وفي منتصف الستينات أطلق مفكر إخواني آخر هو سيد قطب النار على الحضارة الحديثة ووصفها بالجاهلية والكفر داعياً المسلمين الى محاربتها وإسقاطها بالقوة ، وما من شك في أن هذه الأفكار الإخوانية أسست لحقبة العنف الجهادي التكفيري التي شهدها العالم العربي و الإسلامي خلال السبعينات والثمانينات والتسعينات والحقت به أضراراً جسيمة !!

أسئلة الأوهام

كانت اسئلة رواد فكر التنوير في القرن التاسع عشر تدور حول اسباب تقدم الغرب وتخلف العالم العربي والاسلامي ، وتحاول البحث عن الأجوبة في واقع المسلمين المتخلف ، فيما تُلقي مسؤولية تخلف المسلمين على عاتقهم أنفسهم .. امّا الأسئلة التي طرحها الفكر الإخواني فقد نزعت الى تبرئة المسلمين من أسباب وعوامل العجز ، وحاولت تقديم صورة مغلوطة عن واقع التخلف الذي يعيشونه مفادها ان العالم الاسلامي لا يعيش انحطاطا حضارياً ، بل ان الحضارة الغربية هي المنحطة ، أمّا أسباب انحطاطها وانحلالها فهو عدم مشاركة المسلمين في صنعها .. بمعنى ان هذه الأسئلة تحاول الإيهام بأن الانحطاط لا يوجد في العالم الاسلامي بل في الحضارة الحديثة التي أصبح الغرب معقلها الرئيسي منذ الثورة الصناعية ، وإن إنقاذ هذه الحضارة من انحطاطها مشروط بمساهمة المسلمين من النقطة التي توقف عندها ابداعهم الحضاري ، أي بالعودة الى الأجوبة التي كان قد طرحها الفقه السلفي على اسئلة الحياة في تلك الحقبة الغابرة من عصور التاريخ !

يقيناً ان جماعة الإخوان المسلمين كانت تنظيماً سياسيًا بامتياز .. وكذلك كان فكرها الإصلاحي السلفي سياسياً هو الآخر .. و لا ريب في أن فكر الإخوان المسلمين قام على مبدأ التأصيل ــ أي العودة الى الأصول ـ وهو ما أدّى الى ان يتجاوز الفكر السياسي الإخواني حقبة التنوير التي طرحت على يد رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد العطار وعلي مبارك وعلي عبدالرازق وخير الدين التونسي اسئلةً جديدةً بتأثير صدمة الحداثة مع الحضارة الغربية في القرن الثامن عشر ((حملة نابليون على مصر)) والقرن التاسع عشر ((الحملات الاستعمارية على العالم العربي والاسلامي)) ، ليقفز مباشرة ــ أي الفكر السياسي الإخواني ــ الى عصر الغزالي والذهبي وابن تيمية والشاطبي وغيرهم من مؤسسي فقه التشدد في العصور التي شهدت بداية غروب شمس الحضارة الاسلامية ، وأسفرت هذه النقلة عن نزعة إلغائية إنعزالية ترفض مخرجات الحضارة المعاصرة وقيم العالم الجديد ، وتسعى الى قراءة النصوص الدينية والفقهية بطريقة تدين الحضارة الحديثة والعالم المعاصر والمجتمعات الاسلامية إدانة شاملة على أساس منهج التأصيل !!

تميز الفكر الإخواني ــ الذي مهّد فيما بعد لظهور تيار الإسلام السياسي فكرياً وتنظيمياً ـ بالانغلاق التأصيلي سواء في مسائل الفروع ــ الحرام والحلال ــ او في المسائل الكبرى المتعلقة بالعصر والعالم والحضارة المعاصرة والقيم الإنسانية المشتركة ، فكانت النتيجة تأويلاً منغلقاً ومتعصباً للنصوص وإدانةً للعصر كله بما ينطوي عليه من منجزات حضارية وقيم إنسانية مشتركة وأفكار ونظم سياسية ، ووصلت مسيرة هذا الفكر ذروتها بإفراز ثقافة مأزومة تخاف العالم ، وتتجه بدوافع العجز وضيق الأفق الى مقاتلة المجتمعات الإسلامية بل العالم بأسره وثقافته من خلال ثقافة وسلاح العنف !!

مع تحول الحضارة العالمية نحو العولمة وانتقال النظام العالمي الى النظام الكوني تهاوت كافة الآيديولوجيات التي تفترض إمكانية تقسيم العالم الى عوالم حضارية ومنظومات ايديولوجية متناحرة .. وكما سقطت الآيديولوجيا القومية والآيديولوجيا الاشتراكية في هذا التوقيت ، بدأت الآيديولوجيا الدينية التي صاغها الإسلام السياسي تدخل مرحلة الأفول والانهيار .

وإذا كان القوميون والإشتراكيون حاولوا تعديل الجهاز المفاهيمي للآيديولوجيا القومية والإشتراكية ، واختزاله الى أدنى مستوى من الصيغ الضبابية التي لاتتجاوز التضامن العربي والعدالة الإجتماعية ، فإن الآيديولوجيا الدينية بدأت هي الأخرى في تعديل جهازها المفاهيمي من خلال التراجع عن إدانة العصر ومخرجات الحضارة الحديثة ، حيث اضطر بعض الإسلاميين الى التراجع بقبول الديمقراطية بدلاً من تكفيرها ، والتسليم بضرورة التعايش مع الآخر بدلاً من رفضه ، و الإنفتاح على الغرب وحضارته بدلاً من وصفهما بالجاهلية ، والاعتراف بأن إشكالية التمايز مع الغرب هي معرفية وليست دينية .. والأكثر من ذلك ارتفعت اصوات داخل الإسلاميين تطالب بإصلاح الجهاز المفاهيمي للفكر السياسي الاسلامي ، وإعادة قراءة التاريخ بمنهج نقدي تحليلي ، والتحذير من مخاطر إضفاء القداسة على كل ما هو تأريخي ، والمطالبة بفتح باب الاجتهاد وإعادة الاعتبار لمفهوم مقاصد الشريعة وفقه المصالح .

لعل التوجهات الأخيرة التي بدأت تظهر في أوساط الإسلاميين تعيدهم الى أسئلة حقبة فكر التنوير التي وجه الفكر الإخواني ضربة قوية لها ، وسعى الى تجاوزها من خلال العودة الى الخلف والتوجه الى فكر الغزالي والذهبي وابن تيمية والشاطبي وأضرابهم ، متجاهلاً حقيقة ان أسئلة حقبة فكر التنوير ـ التي كان المفكرون الإصلاحيون يبحثون عن إجابات عليها ـ هي أسئلة العصر بامتياز وليست اسئلتهم الشخصية ، وهي فوق كل ذلك أسئلة غير مسبوقة ولم يطرحها أي عصر من العصور السابقة !!

لا مبالغة في القول إن مشكلة الإسلام السياسي معقدة للغاية ، فإذا كان بوسع رموز هذا التيار سهولة التنكر لفكر سيد قطب التكفيري والبراء من كتاب ((معالم في الطريق)) ، بعد أن أصبح الكاتب والكتاب في ذمة التاريخ .. فليس بوسعهم التخلص من رموز إخوانية فكرية ارتبطت حياتها وما زالت مرتبطة بنشر الفكر التكفيري التصفوي ، والدعوة الى فقه التشدد وإدانة الأفكار الإصلاحية التي بشرت بها حقبة فكر التنوير .

أمثال هؤلاء كثيرون في اليمن وغيرها من أقطار العالم العربي والإسلامي ، وما زالوا أحياء ويتسنّمون مواقع قيادية وروحية في حركة الإسلام السياسي ، الأمر الذي يجعل المراهنة على نجاح هذه الحركة في التجدد والخروج من مأزق الركود امراً صعباً للغاية !

لنأخذ على سبيل المثال أفكار الشيخ الإخواني د محمد سعيد رمضان البوطي الذي يدرس طلبة احدى الجامعات اليمنية أفكاره ــ وهي بالمناسبة أفكار محورية في المنهاج الفكري للإسلام السياسي ـ حيث يهاجم الأفكار الإصلاحية لحركة التنوير في كتابه الشهير "كبرى اليقينيات الكونية" ، ص ١٩ ـ ٢٠ بقوله : ((كانت تلك التي زعموها مدرسة إصلاحية منشأً زمانياً لوقوع الفكر العربي الإسلامي في منطقة الجاذبية الغربية)) .. ثم يتهمها بالخيانة والعمالة بقوله : ((وفي يقيني ان ظهور تلك المدرسة التي كان يخطط لها اللورد كرومر واللورد لويد بكل خفاء ودقة كان إيذاناً بانهيار الشخصية الاسلامية التي ظلت متماسكة حتى بعد زوال الخلافة الإسلامية الى أمد)) .. وبعد ذلك يصعّد البوطي تلك الاتهامات ويصل بها الى مستوى التكفير والتخوين في آن واحد حين يتساءل قائلاً : ((كيف يتسنى للمسلم الصادق في إسلامه ان يجاري محمد عبده في طي سائر الحقائق الغيبية والتكلف في تأويلها ، لمجرد تطويع الاسلام لبرنامج التحديث الغربي الذي كانت تخطط له بريطانيا صراحة ؟))

لا يختلف إثنان في أن أفكار البوطي تعد جزءًا مهماً من منظومة أفكار ما تسمى بحركة ((الصحوة)) الاسلامية التي ارتبطت بفكر الإخوان المسلمين .. والمتأمل لهذه الأفكار سيلاحظ أن ثمة رفضاً مطلقاً لأي عملية تجديد في الفكر الإسلامي ، ناهيك عن التشكيك بأي توجه نحو التحديث والتجديد من خلال الافراط في إتهام دعاتهما بالتغريب و محاربة الإسلام !!

يقيناً ان التخلف ليس قدراً مطلقاً .. ولعل ما يميز الواقع العربي والإسلامي في عصر العولمة وما بعد الحداثة الذي تزامن مع ميلاد الألفية الثالثة من التاريخ الميلادي ، عن عصر الحداثة الذي دشنته الثورة الصناعية الأولى والثانية قبل ثلاثمئة عام ، هو استمرار تخلفه بوتائر متصاعدة ، مع وجود فرص موضوعية لتجاوز واقع التخلف .

صحيح ان العالم العربي والإسلامي تخلف عن اللحاق بعصر الحداثة الأولى الذي دشنته الثورة الصناعية والتقنيات العلمية في القرن السابع عشر وبلغت ذروتها في القرون الثلاثة الأخيرة ، وكان من نتائجها تقسيم العالم الى مركز مهيمن وأطراف تابعة ومعزولة ، وما ترتب على ذلك من عالمية ذات طابع عمودي .

لكن عصر الثورة الأليكترونية ، بما هو عصر العولمة وما بعد الحداثة يتسم بالنزوع الى تغيير خارطة العلاقة بين مفاعيل النظام الكوني .. فالمادة لم تعد عضوية وآلية بل اليكترونية ومعلوماتية .. وبالمقابل لم يعد الفكر يبحث عن الحقيقة من خلال المعطيات الموروثة والقائمة فعلاً ، بل من خلال المعطيات التي يهتم العقل بالتفكير في إبداعها وإنتاجها عبر تقنيات المعلومات وشبكات الإتصال ، وما يترتب على ذلك من تغيير العلاقة بين الوعي المعرفي والواقع الملموس .

مما له دلالة ـ في هذا السياق ــ ان الآلة بوصفها أبرز معطيات الحداثة الإنتاجية في حقبة الثورة الصناعية ، انتجت وقائع و حقائق جديدة ، ووحّدت العالم في شبكة علاقات ذات طابع عمودي .. بيد أن دخول الرقم كعنصر حاسم في الإنتاج الأليكتروني جعل الواقع والحقيقة مفتوحين أمام تحولات بلا حدود .. بمعنى إمكانية إكساب العالم الواقعي بنية أفقية إندماجية لامتناهية ، بعكس عالم الثورة الصناعية العمودي والمجرد . !!

كانت التناقضات في عالم الحداثة الصناعية قائمةً بين بنى محورية ذات حدود صارمة ، وبين فواعل ومفاعيل ترتبط فيما بينها بعلاقات عمودية .. امّا عالم ما بعد الحداثة فهو يتسم بميله لأن يتحول الى بنية سوقية محوريةٍ و مندمجة ، تصبح التناقضات معها قائمةً بين فاعلَيْن متميزَيْن بطريقتي تفكير متناقضتين .. الأول يفكر بعقليَة ديناميكية ويعمل على تطوير أنماط التفكير والعيش من خلال الإندماج ضمن سوق كونية تتوفر فيها فرص غير مسبوقة لتبادل المعطيات من أفكار وسلع وخدمات ومعلومات ، فيما يفكر الآخر بعقلية إنعزالية تقليدية ، ويصر على العمل وفق قوالب مدرسية نقلية ، وأفكار ماضوية جاهزة ، ما يؤدي الى إهدار الفرص المتاحة للتقدم ، والاستمرار في إعادة إنتاج العجز ، وتهميش الذات بالذات نفسها !!

من المفارقات التي تميز عصر العولمة وما بعد الحداثة عما قبله ، انه ينطوي على حوافز وفرص تفتح إمكانات هائلة أمام كل من يرغب في الإندماج به للتأثير في مفاعيله الداخلية وتغيير قواعد حركتها .. بمعنى ان العولمة فضاء مفتوح للمشاركة والاشتغال على معطياتها ووقائعها من خلال قدرات معرفية وأنساق ذهنية ، لا قدرات مادية عضوية كما هو حال الحداثة الصناعية ، الأمر الذي يتطلب طريقة تفكير جريئة واقتحامية تجترح صيغاً جديدة للانفتاح والعمل والنمو والتلاقح والتفاعل ، بدلاً من لعن العولمة والبكاء على أطلال الهوية والخصوصية والسيادة .. وبهذا فقط يمكن للمهمشين المشاركة في جدل العصر ، وتجنب البقاء على الهامش .

نقلاً عن صحيفة (٢٦ سبتمبر)

المؤتمر القومي الإسلامي .. تأخرت الساعة نصف قرن !

سعيد الحمد

المؤتمر القومي الإسلامي الذي انعقد في نهاية عام ٢٠٠٦ في العاصمة القطرية الدوحة، لم يخرج لا في صياغاته ولا في خطاباته ولا في أسلوبه ومواضيعه عن المؤتمرات القومية الإسلامية التي شهدنا انعقادها وتابعنا بياناتها وخطاباتها طوال العشرة أعوام الأخيرة. ولعل ما ميّز وامتاز به المؤتمر الأخير توافق واتفاق جميع من حضروه ومن شاركوا فيه "وهم يمثلون الطيف القومي الإسلامي من المحيط إلى الخليج" على التغني والإشادة وتمجيد الانتصارات "الوهمية" للأمة العربية التي كانوا يرثونها ويهجونها حيناً ويمجدون انتصاراتها أحيانا أخرى، وهي مفارقة تحتاج إلى طبيب ومحلل نفساني بارع يقف على ازدواجيتها بين المدح والهجاء، وبين الإشادة والرثاء وبين أوهام النصر وواقع الهزيمة.. وهي الهزيمة من الداخل التي تحولت بقدرة قادر في أعمال وفي خطابات المؤتمر القومي الإسلامي إلى "نصر مبين" ، يتغنى بانتصارات العراق وانتصارات لبنان وانتصارات فلسطين على المشروع الأمريكي الاستعماري الصهيوني الماسوني..!!

ودعونا نأخذ "الانتصارات" الموهومة واحدة واحدة لنقف على تباشير وتفاصيل نصرها العظيم الذي جاء ذكره في خطابات القوميين والاسلاميين الذين تغنوا به في مؤتمرهم.

هل ما يجري في العراق من ذبح يومي وتفجيرات يذهب ضحيتها كل يوم، بل كل ساعة من ساعات الليل والنهار يعتبر انتصارا ويعتبر فتحا مبينا؟ حدثوا العاقل بما يليق يا جماعة "القومي الإسلامي" فما يجري في العراق لا يمكن النظر له من زاوية تورط الجيش الأمريكي وخسارة أفراده اليومية.. فهناك شعب عراقي بأكمله مرهون كل ساعة، بل كل دقيقة لموت مجاني بشع، أما تفجير في الأسواق وفي الطرقات، وفي المدارس والجوامع والمراقد والشوارع، وإما خطف وإما ذبح على الهوية.. ناهيك طبعا عن حالات الاغتصاب والتعذيب والسجن والاعتقال.. فحرب الميليشيات، في العراق هي الكارثة الكبرى التي يذهب ضحية لها الشعب العراقي البريء. لا يمكن أن نحكم على ما يجري في العراق ولا يمكن اعتباره انتصارا كما قال المؤتمر القومي الإسلامي فقط لأن الجيش الأمريكي يفقد جنودا هناك، أو لأن أحزابا وأفرادا من المجتمع الأمريكي يطالبون ويضغطون على الإدارة الأمريكية للانسحاب وحتى لو انسحبت أمريكا.. ماذا سيجري بين العراقيين وماذا سيجري بين الميليشيات المسلحة.. الوضع العراقي متمزق ومرشح لمزيد من التمزق على أيدي ميليشياته وطوائفه العراقية المدعومة للأسف ماديا وعسكريا ولوجستيا من بلدان في المنطقة، سواء بعض الدول العربية أو من إيران وهي التي تستقوي بها الحالة العراقية في حروب الميليشيات والأحزاب والطوائف وهي الكارثة التي تهدد حاضر ومستقبل العراق، ولا يمكن لعاقل منصف ان يعتبر ما يجري في العراق "انتصارا"، لكنه المؤتمر القومي الإسلامي الذي لا ينظر إلى الأمور ولا يحكم عليها إلا من زاوية واحدة فقط هي الخسارة الأمريكية حتى لو جاءت هذه الخسارة على حساب أرواح المواطنين العرب واحتراق بلدانهم عن بكرة أبيها، كما يحدث في العراق من اقتتال ومن ذبح عراقي – عراقي..!!

وبنفس النظرة وبنفس المقياس والمعيار تناول المؤتمر القومي الإسلامي ما يجري في فلسطين وفي لبنان.. واعتبره انتصارا مبينا.. ولا نعلم من انتصر على من في فلسطين التي جرى الاقتتال فيها بين حماس وفتح وتعطلت الدولة والثورة وتورطت حكومة حماس في مسؤوليات ومهام اكبر من طاقتها ومن قدراتها، وجاع الشعب الفلسطيني أو كاد وهو يبحث الآن عن امن يحفظ به حياته بعد أن كان في مطلع استلام حماس للحكومة يطالب بروابته التي انقطعت منذ شهور وشهور. فعن أي انتصار حدثنا المؤتمر القومي الإسلامي الذي "يصنع" داخل قاعاته الفخمة انتصارات وهمية يبني عليها خطابات "ثورية" مستعارة من الخمسينات والستينات في لغتها وفي مفرداتها وكلماتها وشعاراتها التي تبدأ بشتم الصهيونية والامبريالية والأمريكية والماسونية، وتنتهي بنفس السلسلة من الشتائم ورفع الشعارات المكرورة منذ اكثر من نصف قرن من الزمان العربي. وما زال المؤتمر القومي الإسلامي يرى أن "المقاومة هي السبيل الوحيد للتحرير" .. ولم يسأل المؤتمر نفسه.. مقاومة ماذا وكيف.. ومتى.. فالكارثة في العراق ليست بسبب الوجود الأمريكي الذي لا يرغب أصلا في البقاء.. ولكن الكارثة في القوى والأحزاب الطائفية والشوفينية والعرقية والعصبية وفيما يجري بينها.. أما "المقاومة" في فلسطين فهي مرد شعار لا ينسق مع واقع الاتفاقيات الدولية التي عقدتها المنظمة والتزمت بها دوليا، كما لا يمكن له الاتساق مع واقع حال الدول والأنظمة العربية ولا مع واقع حال النظام العالمي الجديد.. باختصار الدعوة لاعتماد المقاومة بوصفها "السبيل الوحيد للتحرير" هي دعوة للانتحار المجاني والجماعي ليس للشباب الفلسطيني وحده، وانما لشباب الامة العربية بأكمله الذي لم تهتم مؤتمراتنا القومية والقطرية بإعادة وبتجديد خطابها له على ضوء المتغيرات والتبدلات الكونية الكبيرة ومازلت تزج به مشحونا في معارك خاسرة أين منها معركة البقاء والتحدي بالعلم والمعرفة.

ومع كل مؤتمر عربي سياسي أو فكري أو ديني أو ثقافي يعقد وتنفق عليه مئات الألوف من الدولارات يوميا وأسبوعيا وشهريا ودوريا.. يتبين لنا مدى حاجتنا الملحة لثقافة عربية جديدة تقدم خطابها الجديد بناء على الواقع لا على الأوهام ولا على الشعارات القديمة والتفكير القديم. نحتاج خطابا.. نحتاج فكرا.. نحتاج ثقافة تتجاوز بنا ثقافة الأزمات وأسلوب تدوير الأزمات.. ثقافة تفهم الواقع الكوني الجديد وقادرة في ذات الوقت على أن تتفاهم معه. وما عدا ذلك فسيكون تكرارا وإعادة إنتاج للأزمات والكوارث.

إعلامي بحريني

لا .. الديمقراطية !!

مشاري الذايدي

لا للديمقراطية ! هذه ليست لائي أنا، هذه لاء باحث أمريكي، وكاتب مرموق في مجال الكتابات الإستراتيجية، إنها لاء «فريد زكريا»، رئيس تحرير« نيوزويك» الدولية، والكاتب في مجلة «فورين افيرز».

لاؤه هذه يتوجه بها للعالم الثالث (عالمنا نحن أهل الحزن والقلق الدائم!) وحجته، كما قال في كتابه «مستقبل الحرية.. الديمقراطية غير الليبرالية داخل الوطن وخارجه»، والذي كان أصله مقالا نشر في «فورين افيرز» ١٩٩٧، حجته أن الليبرالية الدستورية ثم الرأسمالية، هما المقدمتان الضروريتان لوجود «ليبرالية ديمقراطية» في العالم العربي والإسلامي.

هذا الرجل من أصول هندية إسلامية، الأمر الذي ـ ربما ـ يخفف من تهمة العنصرية الانجلوسكسونية البيضاء، أو لا يقلل منها، ليس مهما!

المهم هو في قراءة حجج الرجل ودلائله. وهي حجج ودلائل تقوم على فكرة مباشرة هي أن التاريخ الحديث يخبرنا أن الديمقراطية حينما مورست في كثير من دول العالم الثالث . بفضل ضغط غربي طبعا . أفضت إلى نتائج سيئة تجلت في وصول تيارات أصولية ونازية، وان الوضع الاقتصادي والحريات العامة والأمن كانت أفضل في ظل الأنظمة السابقة التي تمت الثورة عليها، أو إضعافها بحجة الحرية والديمقراطية.

ولكن قبل ذلك دعوني أقول لكم لماذا استعيد هذا الجدل ؟!

الحق أن شعار الديمقراطية شعار جميل، وجنة سياسية يسعى إليها كل إنسان نقي العقل، فهي منتهى التطور السياسي الاجتماعي، و«سدرة منتهاه»، ولكن هذا الشعار، الذي طالما رفع في وجه الحكومات الدينية والاستبدادية والنازية والشيوعية، أو الملكية والعسكرية، كان في كثير من الأحوال يفضي إلى نتائج أسوأ مما كان... ونرى خيارات الناخب تتجه دوما إلى من يقوده إلى الخلف أكثر من السابق، وكأنه ينتقم من نفسه !

من أحدث الأمثلة وأقربها: مصر، فمصر التي يقودها نظام سياسي شبه عسكري منذ ثورة يوليو، هو نظام غير مرحب به لدى القوى «التقدمية» والشيوعية، إضافة طبعا إلى القوة الرئيسية المعارضة، اعني الإسلاميين وفي مقدمهم الإخوان المسلمون.

حجج الرافضين للنظام المصري، خصوصا في فترة مبارك ، ومع اندلاع الهجمة الأمريكية الديمقراطية على المنطقة، متنوعة ومتعددة، لكنها تستظل بمظلات شعاراتية «مؤقتة» مظلات تجمع تحتها الصقر الاخواني مهدي عاكف، والعلماني المسيحي جورج إسحاق منسق حركة كفاية «التقدمية العلمانية» تحت عنوان مناهضة النظام سياسيا ومضايقته باستمرار، بحجة الديمقراطية، أو بحجة أن النظام خذل الفلسطينيين أو «سمح» بالغزو الأمريكي للعراق... وغير ذلك. لكن فيما سوى هذه الشعارات التوحيدية «المؤقتة» لا نعلم على وجه الدقة مدى إمكانية بقاء هذا التماسك بين أعداء النظام، في حالة تعرضه لاختبار حقيقي، يمتحن القناعات الفكرية والآيديولوجية لدى كل طرف، وهو أمر شهدنا جانبا منه في «محنة» الوزير فاروق حسني، حينما تعرض لهجمة شعواء من قبل نواب الإخوان المسلمين، وحركت ماكينة الإخوان المشاعر الشعبية ضد الوزير الذي اتهم بإهانة الحجاب، الأمر الذي جعل نواب الحزب الوطني الحاكم يدخلون في حفلة مزايدة على نواب الاخوان، ويمشون في المشوار كثيرا .. نتذكر في هذه المحنة كيف أن رموز كفاية وحركة كفاية وصحافة كفاية، اعني كثيرا من صحف المعارضة، ارتبكت، فهي من جهة تعتبر نفسها حركة مجتمع مدني تدافع عن الحريات السياسية وتهاجم . من منظور وطني علماني ، مساوئ النظام، فكيف تنخرط في معركة ليست لها ؟!

ماذا فعل «الكفائيون» حينها؟!

دخلوا في مناورة مخفقة لتحوير المعركة ضد الوزير حسني، من معركة الحجاب إلى معركة الفساد «الضارب» في وزارة الثقافة، والمحسوبيات، والنهب من المال العام.. من اجل إظهار الحركة في خندق المعارضة ضد الوزير، واستطرادا ضد الحكومة، من دون أن تخدش نقاءها العلماني، خصوصا أنها تقدم نفسها للقوى الديمقراطية في الغرب باعتبارها صوت الحرية والديمقراطية... فكيف تنضم لرؤية الإخوان الرجعية ضد المرأة ؟! خصوصا أن مسألة قمع المرأة في العالم العربي من أهم المسائل التي تنصب عليها جهود المنظمات الدولية الإنسانية والحقوقية في سياق نقد الأنظمة العربية !

انتهت محنة الوزير حسني بعدما صرح بأنه كان غافلا عن أهمية إنشاء إدارة دينية في الوزارة، وانه «خلاص» سينشئ هذه الإدارة، وان هذا من دروس الأزمة، لنطالع بعد ذلك تصريحات لمرشد الجماعة مهدي عاكف خلاصتها: يكفي ما حصل، والضجة مبالغ فيها، وتخرج كفاية كسيحة!

ماذا نريد أن نقول؟

نريد القول انه ورغم أن حركة كفاية تعتبر من ابرز الأمثلة في العالم العربي على صعود القوى الديمقراطية، إلا أنها ليست إلا كيانا شاحبا هزيلا، رغم كل النفخ الإعلامي، بالقياس إلى حركة الإخوان الأصولية، هذه الحركة التي حينما نفس لها النظام تحت وطأة المطارق الأمريكية، دخلت دخولا مدويا إلى البرلمان، وها هي الآن تعد العدة لتقديم برنامجها السياسي رغم انف القانون الذي لا يسمح بالانتماء لحزب الإخوان المسلمين منذ أكثر من نصف قرن، ورغم أنف التعديل الدستوري الاخير الذي يقول بعدم جواز قيام أحزاب سياسية على أساس ديني، طبعا النظام رد بالأسلوب الأمني المعتاد، وسجن بعض الفاعلين (هل سمعتم باستنكار من قبل كونداليزا رايس هذه المرة !) لكن الإخوان مصرون على المضي قدما، والرئيس مبارك يقول إن وصول الأحزاب الأصولية إلى الحكم يعني دخول البلاد في خراب، وهرب الاستثمار وتعاسة الحال.. ربما يعني هذا الكلام الذي نقوله هنا اننا ضد الديمقراطية ومع الأنظمة المستبدة؟!

وطبعا كلام كهذا غير شعبي أبدا.

الحق، كما أرى، مع نصف هذا الكلام، بمعنى أنه: ليس صحيحا أن شفاء علتنا السياسية والعربية هو بتطبيق الديمقراطية الشفافة وتمكين الجمهور بكل راحة وصدق من اختيار من يشاء.

هذا تبسيط، وفوق ذلك يؤدي إلى نتائج وخيمة، وآخر دليل ما جرى في العراق: انتخابات نزيهة بشهادة كثيرين، لكنها أوصلت أناسا ليسوا قادرين على «حكم العراق» ونفع العراقيين أمثال قادة جيش المهدي ومنظمة بدر والميليشيات الطائفية، لأنهم جاءوا بسبب شعارات عاطفية دغدغت مشاعر «الأكثرية»، وفقط ! أما النصف الذي لست معه من هذا الكلام، فهو أنني أرى أن الأنظمة العربية لم تفعل ما تحدث عنه فريد زكريا، من وجوب السعي نحو تجهيز المجتمع لممارسة الديمقراطية، من خلال إرساء ضوابط دستورية واضحة، وثقافة قانونية حقيقية، تشمل المجتمع كله أفقيا وعموديا، ضوابط وثقافة تمنع استئثار حزب ما بالسلطة إذا ما وصل إليها عن طريق الانتخاب الديمقراطي، وبعد هذه الليبرالية القانونية ننتقل إلى المراحل الأخرى.

أضيف إلى ذلك، دعم ثقافة التعددية وتعويد المجتمع على قبول الخلاف، تعويده بشكل منهجي وعنيد، وتلك مهمة لا يقدر عليها إلا من ملك صدقا وعزما من الساسة.

هذه الخطوات «التجهيزية» لم تفعلها الأنظمة العربية، ولذلك تجمد الوضع، وحدثت فيه رخاوة وضعفت القدرة على مقاومة وهج الشعار المعارض. ونحن نعلم أنه خير من يدافع عنك هو أفعالك على الأرض، وليس وعودك للناس بأنك ستفعل !

هذا السعي الجاد، والرصين، نحو جنة الديمقراطية هو المخرج من مصائر لا يعلم إلا الله شكلها. نريد هذه الخطوات التجهيزية حتى تصبح الديمقراطية ثمرة طبيعية وليست قفزة في المجهول. المهم هو عدم الركض مجددا خلف أهل الشعارات والحماسيات التي لم تقطع أرضا ولم تبق ظهرا، دينية كانت هذه الشعارات أم قومية ويسارية. أيضا أن تنفض الأنظمة عن نفسها غبار الجمود، وذنوب الفساد، هذا الفساد الذي قال ذات مرة عنه الشيخ صباح الأحمد حاكم الكويت إنه فساد «لا تحمله الجمال»!. ولكن، هل يعني هذا «تعليق» الديمقراطية، وعدم العمل بها إلى أن «يتربى» الناس على ثقافة الديمقراطية، وتصلح الأنظمة نفسها ؟! أليس هذا كلاما مثاليا وغير عملي؟!

لا أدري حقا ! ولكن يبدو لي هنا أنه يمكن ممارسة ديمقراطية سياسية من نوع خاص في عالمنا في هذا المرحلة من تاريخنا، كالتي تمارس في تركيا أو في الأردن، ديمقراطية تسمح بتولي الإسلامي رجب طيب اردوغان رئاسة الوزراء، أو الإسلامي الاخواني عبد اللطيف عربيات رئاسة البرلمان الأردني، ولكن في الحالتين لم يتسبب وصول الإسلاميين إلى مواقع متقدمة في الحكومة في هز بنية الدولة وتغيير هويتها وقلبها بالكامل، وضرب الثقافة الاجتماعية، والسبب وجود مصدات مانعة، ليست هي المصدات القانونية والدستورية فقط، فهذه نصوص يمكن تغييرها، ولكن وجود قوى تحمي الوضع العام، وهي الجيش في تركيا، والقصر الملكي في الأردن.

ربما يمكن اعتماد هذا السبيل، من اجل عدم الجمود في الممارسة الديمقراطية، وفتح المجال المحسوب.

يبقى الأهم في نهاية الأمر هو الارتقاء إلى الديمقراطية وليس إحلالها . بقضها وقضيضها . على عربة متهالكة، ربما تنهار بالجميع، وحينها..!

كاتب سعودي

في ذهنية محمد عمارة

سامح سامي

يثير بين الحين والآخر الدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي الذي يعتبر من أكثر الكتاب السلفيين في مصر والعالم الإسلامي افتعالا للمشاكل التي تثير مشاعر الغضب والاحتقان من أقباط مصر حول ما يكتبه سواء في كتبه أو في تصريحاته الصحفية أو مقالاته بالصحف القومية التي يمتلكها الشعب المصري كله، سواء المسلم أو المسيحي .

والسؤال الملح: هل ما يقوله محمد عمارة يحدث هفوة أو يحدث لمرة واحدة أم أنه منهج دائم له؟!!. أي ما يقوله محمد عمارة–وكثيرا ما يكون بالاسترشاد بمفكرين غربيين مسيحيين– عبارة عن هفوة باحث –وهذا غير وارد في البحث العلمي ولكنه أضعف الإيمان أو أضعف مبرر له– أم أنه منهج يطوعه لخدمة عقيدته أو أفكاره السلفية الجامدة. من الواضح أن ما يفعله محمد عمارة يكون عن قصد متعمد بداية من مقاله بجريدة الأخبار وكتبه وأحاديثه الصحفية وانتهاء ببرنامجه "الرد الجميل" على بابا الفاتيكان الذي يذاع على قناة النيل الثقافية وهو عبارة عن رد سيء وبه كم من المغالطات التاريخية والفلسفية.

آخر ما أثاره عمارة بكتابه: "فتنة التكفير ما بين الشيعة والوهابية والصوفية" الذي نقل فيه آراء الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه : "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" ، وهو كتاب منتشر في مصر والعالم العربي كله ويوزع بشكل علني. في هذا الكتاب يوضح الإمام الغزالي أن: "اليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما للرسول، وهذا الكفر حكم شرعي ...إذ معناه إباحة الدم، والحكم بالخلود في النار، ومدركه شرعي، فقد وردت النصوص في اليهود والنصارى، والتحق بهم البراهمة والزنادقة، فإنهم مكذبون للرسول